

العنوان:	طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الاندلسي : دراسة سردية
المؤلف الرئيسي:	كساب، إنصاف إبراهيم
مؤلفين آخرين:	الصالح، عزمي محمد شفيقة(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2014
موقع:	جرش
الصفحات:	1 - 107
رقم MD:	790241
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
اللغة:	Arabic
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	جامعة جرش
الكلية:	كلية الآداب
الدولة:	الأردن
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف، ابن حزم الاندلسي، السرد الأدبي، النقد الأدبي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/790241

لإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

كساب، إنصاف إبراهيم، و الصالحي، عزمي محمد شفيق. (2014). طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الاندلسي: دراسة سردية (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة جرش، جرش. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/790241>

إسلوب MLA

كساب، إنصاف إبراهيم، و عزمي محمد شفيق الصالحي. "طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الاندلسي: دراسة سردية" رسالة ماجستير. جامعة جرش، جرش، 2014. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/790241>

الفصل الثالث:
دراسة تقويمية لمكانة طوق الحمامة بين
كتب العشق

دراسة تقويمية لمكانة طوق الحمامة بين كتب العشق:

تحدث كتاب طوق الحمامة لابن حزم عن العاطفة الإنسانية التي تعتمد على التجربة والملاحظة والتحليل النفسي، لم يكن ابن حزم وحده قد ألف وكتب في هذه العاطفة (الحب) بل سبقه إلى ذلك أبو داود الأصبهاني في كتابه (الزهرة) الذي ألفه سنة ١٤٠٥هـ^(١).

لقد تناول أبو داود ظاهرة الحب بالدراسة، وذكر قصص العشاق، ولكن غلب على كتابه الشعر أكثر من الأخبار، في حين التزم ابن حزم في كتابه بمنهج يتميز بالجدة والابتكار اللذين ميزاه عن سابقيه، فقد اقتصر في كتابه على ما شاهد أو صح عنده مما نقل الثقات من الرواة، فكان منهجه واقعياً تجريبياً معتمداً على تجاربه وتجارب المحبين من حوله لذا خلا منهجه من الاستقصاء العلمي أو التقصي^(٢).

أراد ابن حزم، من خلال دراسته لعاطفة الحب، أن يكشف عن حقيقتها، وأوصافها وأسبابها وأعراضها، ولم يرد أن يكون هذا الكتاب لغرض التسلية أو أن يكون كتاب حشوٍ لأخبار ونوادر وطرائف الناس، فالتزم الحقيقة، وابتعد عن الخيال، فهو يضرب صفحاً عن أخبار الأعراب والمتقدمين لكثرة الأخبار عنهم،

(١) الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داود، الزهرة، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ج١، ط٢، ١٩٨٥، ص ٢٩.

(٢) عبد الواحد، مصطفى، دراسة الحب في الأدب العربي، دار المعارف، مصر، ١٩٧٢، ج٢، ص ٢٢٧.

فيقول: "ودعني من أخبار الأعراب المتقدمين، فسبيلهم غير سبيلنا، وقد كثرت الأخبار عنهم"^(١).

يُلاحظ هنا خروج ابن حزم عن عادة أدباء وكتاب عصره أمثال أبي داود فقد تجاوز عن قصص وأخبار السابقين واكتفى بما شاهد أو سمع من الثقات.

وهذا جانب امتاز به ابن حزم عن سبقه وتلاه، بواقعية وموضوعية ، فقد حفلت الدراسات السابقة عليه (كالزهرة) للأصبهاني و(ذم الهوى) لابن الجوزي و(تزيين الأسواق) للأنطاكي وغيرها من الدراسات بأخبار السابقين وأشعارهم، والأمر نفسه ملحوظ في الكتب التي ألفت بعده مثل كتاب (مصارع العشاق) لابن السراج، ٤٩٣هـ، فمنهج ابن حزم يقوم على إيراد ما شاهده، ووقع تحت حسه، وحدثه به الثقات من أهل عصره فحسب^(٢).

حتى الشعر لم يورد شيئاً منه لغيره، إلا مضطراً في مواضع قليلة، من ذلك، ما أورده عن صاحبه عبدالله بن محمد بن يحيى الذي أرسل له رسالة قال فيها^(٣):

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٨٧.

(٢) عبد الرحيم، مصطفى عليان ، تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٤، ص٣٣٢-٣٣٤.

(٣) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٦١.

ليت شعري عن حبلٍ ودك هل يُم سي جديداً لديّ غير رثيث

أراني أرى محياك يوماً وأناجيك في بلاط مغيث

فلو أن الديار ينهضها الشو قُ أتاكَ البلاطُ كالمستغيث

فهنا يظهر استشهاد ابن حزم بشعر صديقه عبد الله بن محمد بن يحيى
ليشير إلى أنهما كانا يتراسلان شعراً ونثراً يشكوان لبعضهما ما آلت إليه أحوالهما
وما أصبحا عليه بعد الفراق والبين.

أما ابن داود، فقد غلبت المختارات الشعرية المطولة على كتابه (الزهرة)
مما كان ينسبه أحياناً إلى شخصٍ معلوم، وأحياناً أخرى (لبعض أهل العصر)
ومن ذلك ما أورده من شعر منسوب إلى امرئ القيس في الباب العشرين باب
(إذا ظهر الغدر سهل الهجر)، قال فيه امرؤ القيس^(١):

إذا قلت هذا صاحبٌ قد رضىته ومَرَّتْ به العينانِ بدلتُ آخراً

وذلك أني لم أثق بمُصاحبٍ من الناسِ إلا خانني وتغيّراً

(١) الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داود، الزهرة، ص ٢٨١.

وفي أغلب الأحيان عند استشهاده بالشعر يقول عبارة (قال آخر)، أو عبارة (لبعض أهل هذا العصر)^(١) و(قال بعض الأعراب)^(٢).

ومما يكسب كتاب الزهرة قيمة وأهمية أنه لم يورد أشعاراً لشعراء معروفين فحسب، وإنما أورد أشعاراً لشعراء مغمورين، ومن هنا يعتبر كتاب الزهرة مرجعاً لأشعارهم مثل: (المقدام بن ضيغم، ويزيد بن الطثيرة، وعمر بن لجأ والعرجي وآخرين).

أما كتاب (مصارع العشاق) لابن السراج الذي ألفه سنة ٤٩٣ هـ^(٣) فقد كان هدفه الجمع دون التحليل أو الاستدلال، فقد جمع الأخبار والروايات والأشعار دون هدف من ورائها سوى الجمع والرواية.

سار السراج (٤١٧-٥٠٠ هـ) في كتابه على وتيرة واحدة، من البداية حتى النهاية، إذ قسّم الكتاب على اثنين وعشرين جزءاً وأودع في كل منها مجموعة من أخبار العشاق التي تنتهي في أغلبها بإيراده للأشعار المتعلقة بها.

(١) الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داود، الزهرة، مكتبة المنار، الزرقاء-الأردن، ١٩٨٥، الجزء الأول، الطبعة الثانية، الباب العشرون، ص ٢١٧.

(٢) الأصبهاني، أبو بكر بن داود، الزهرة، ص ٢١٩.

(٣) ابن السراج، أبي محمد بن جعفر، مصارع العشاق، تحقيق د. بسمة أحمد صدقي الدجاني، عمان، الوزارة، ص ٢٣.

لم يكن لابن سراج منهج ولا ترتيب في إيراد أخباره ربما تهرباً من ذكر
الباعث من وراء التأليف، فلم يقدم للكتاب، ثم أنهاه دون أن يعقب بشيء^(١)،
بخلاف ابن حزم وابن داود.

فقد أورد ابن حزم في مقدمته سبب التأليف، وعزاه إلى دعوة وطلب من
صديق، وفي ختام رسالته نفى عن نفسه الظنون، وتحرز من إنكار بعض
المتعصبين عليه تأليفه في هذا الغرض.

وكذلك صنع ابن داود، فقد ذكر سبب تأليفه لكتاب الزهرة، وذكر أنه تلبية
لدعوة من صديق. إلا أن السبب الحقيقي يعود، على نحو ما ذكر الخطيب، نقلاً
عن الحسين بن القاسم، إلى ما جاء في قوله: "كان محمد بن داود يميل إلى
محمد بن جامع الصيدلاني، وبسببه عمل كتاب (الزهرة)، وتؤكد صحة إشارة
الخطيب ومصادقتها البداية التي افتتح بها المؤلف (ابن داود) كتابه، فهذه البداية
تدعو إلى التأمل لأنه يقول بعد البسملة: "أطال الله في العز الدائم بقاءك، وصان
عن غير الأيام نعماك، وجعلني غرضاً للنوائب فداك، وقدمني إلى ورود الحمام
قبلك وأبقاك"^(٢).

(١) انظر عبد الواحد، مصطفى، دراسة الحب في الأدب العربي، ص ٣١٧.

(٢) الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داود، الزهرة، ص ٢٨-٢٩.

هذه البداية تكشف عن السبب الذي حمل ابن داود على تأليف الزهرة .

ويتفق ابن حزم وابن داود في بداية حديثهما عن الحب، على موقف الدين

من الحب وصلته به.

يقول ابن حزم: "الحب -اعزك الله - أوله هزل وآخره جد، دقت معانيه لجلالته عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها الا بالمعاناة، وليس بمنكر في الديانة ولا بمحذور في الشريعة إذ القلوب بيد الله عز وجل"^(١) فهو اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة.

فهو بذلك يحاول أن يطمئن القارئ بذكر أمثلة من الواقع، مع إشارة إلى من أحبوا ومنهم عبد الرحمن بن معاوية الذي أحب دعجاء، وعبد الرحمن بن الحكم الذي أحب طروب، ومثله كثير، فهو أراد بذلك أن يبين موقف الدين من الحب، وحاول أن يسوّغ هو وابن داود قيام الحب وأن يجد صلة ما بين هذه العاطفة ومبادئ الإسلام، إذ كانت علاقة العشق بالدين، مثار جدل وخلاف بين المتحررين والمحافظين، فالباحثة ترى أن كلا الفقيهين يريان أن الحب لا يلحق بصاحبه عاراً ولا يتوجه إليه من الدين إنكار، ما لم يتجاوز حدود الدين وتقيد بحدود حلاله وحرامه.

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٩٠.

لقد اهتم الفقهاء بظاهرة الحب، وكان اهتمامهم بها يضاهي اهتمامهم بالعلاقات الاجتماعية الأخرى، وما يترتب عليها من حلال وحرام، كعلاقة المرأة بالرجل وحدودها، فمن الطبيعي أن تلقى هذه المسؤولية على الفقهاء وعلماء الدين.

وتتأول الفقهاء أيضاً قضية الحب، من الجوانب الفقهية الصريحة لما تتضمنه من جوانب الحلال والحرام وما يتصل بهما، فمن الضروري أن يبين الفقيه رأي الدين في ذلك^(١)، كحدود النظر وتكراره مثلاً، وما يرتبط بالعفة والطهر والخلوة وقضايا أخرى من صميم عمل الفقه ولا تصدر إلاً منه، فابن حزم يمتلك يقظة الفكر، ورهافة الإحساس، وغزارة العلم، وسعة المعرفة بالكتاب والسنة، الأمر الذي يخوله الخوض في هذه المواضيع.

فقد تطرق ابن حزم لموضوع الحب، دون أن يثير الغرائز والشهوات، وإنما لتقديم العظة والفائدة والنصح للمحبين، وتتوزع هذه النصائح على أبواب الطوق، فمثلاً باب (من أحب في النوم)، الذي أورد فيه خبراً عن عمار بن يزيد: أنه رأى

(١) انظر: إبراهيم، حسن عبد الله، الحب في التراث العربي، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٠، ص ٥٣-٥٧.

في نومه جارية فاستيقظ وقد ذهب قلبه فيها، فقال له ابن حزم: "من الخطأ العظيم أن تشغل نفسك بغير حقيقة، وتعلق وهمك بمعدوم لا يوجد"^(١).

فهنا يقدم ابن حزم موعظة ونصيحة بعدم إتباع الوهم، وعدم إشغال النفس بأمور خيالية غير موجودة في الواقع، لا تورث إلا الكآبة والإحباط.

وكذلك الحال عند ابن داود، فقد قدم موضوع الحب بدافع النصيح والعظة وبقلب شعري أكثر منه نثري، ومن ذلك ما أورده في باب (من تجلد على النوى فقد تعرض للبلأ) قال ولبعض أهل هذا العصر^(٢):

أصول به تيهاً عليه فمن أرى من الناس قبلي عاشقاً يتصلّف

إذا خفتُ منه الغدرَ أبدى توافي يزول به خوفي ويبقى التَّخَوُّفُ

فهنا يشير ابن داود إلى أنه ربما يعرض العاشق عن المعشوق، إما لامتحان الصبر إما لتجديد حاله عند محبوبه، وكثيراً ما يجري الأمر على ضد تقديره.

أما كتاب (مصارع العشاق) لابن السراج، فلا يمكن أن نعهده دراسة للعشق، كما صنع ابن داود في الزهرة، وابن حزم في طوق الحمامة، بل هو حشد

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١١٥.

(٢) الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داود، الزهرة، ص ٢٥١.

غير مرتب من الأخبار والروايات والأشعار لابن السراج وغيره، رواها عن السابقين ، وأغلب هذه الأشعار من نظمه فجاءت في (مصارع العشاق) حليةً وتكملةً ولم تأت ليستدل بها على شيء، ولم تورد لشيء، فالطابع الإخباري أبعد أعمال الكتاب عن منهج الدراسة والتحليل^(١).

فكان أشبه بالمجاميع الأدبية التي كان القصد منها أن تحوي أكبر قدر من الخبر والشعر، فالكتاب لم يقدم رأياً أو يقدم علة، ولم يقتصر على العشق بمعنى العاطفة الإنسانية، بل تعداها إلى المحبة الإلهية التي امتزجت بالفلسفة والتصوف أو المحبة الأسطورية كعشق الطير والجن.

وإذا أنعم النظر في الكتب الثلاثة ظهر من ناحية دراسة الحب وتحليل معانيه، أن ابن داود تفوق على ابن حزم في النظر إلى التراث الشعري، بينما تفوق ابن حزم بمنهجه التجريبي الذي أهمل التراث الشعري، وأورد الحقائق المعلومة، فلم يعالج إلا ما اعتقد أنه الواقع ، ويظهر ذلك في باب الهجر عندما قال :ولقد عرض لي في الصبا هجرٌ مع بعض من كنت آلف، وهو لا يلبث أن يضمحل ثم يعود، وتحدث عن واقعه عندما أخبر بأنه دهى بفادحة الموت ففقد من يحب وفي ذلك حديث عن تجربته الشخصية استناداً إلى واقعه والأمثلة كثيرة

(١) انظر عبد الواحد، مصطفى ،دراسة الحب في الأدب العربي، الجزء الثاني، ص ٣٤٦-٣٤٩.

في طوق الحمامة أما ابن السراج فلم يقدم دراسة عن الحب بل جمع أشعاراً وأخباراً، فكان منهجه نقلياً.

أما من ناحية الشعر فيبدو أن كتاب الزهرة للأصبهاني هو الأكثر حظاً في إيراد الشعر المتعلق بالحب، فقد جمع خمسة آلاف بيت في موضوع واحد، وجعل كل بيت لمعنى واحد بعكس ابن السراج في كتابه مصارع العشاق الذي جمع قدراً كبيراً من الشعر ولم يحسن ترتيبه وتصنيفه.

أما الطوق، فهو الأقل شعراً، لأن صاحبه لم يكن هدفه الجمع دائماً، وإنما أراد إظهار شاعريته ونتاجه الشعري في مضمار الحب.

أما من ناحية التعبير عن الذات أو الجانب الذاتي، فقد عبر ابن حزم عن ذاته وتجاريه ولم يتحرج من ذلك، فعرض جوانب شخصيته وحياته وبيئته وشعره، بعيداً عن التكلف والافتعال ويتجلى ذلك في أبيات قالها في باب الوصف^(١):

ويا من لامني في حب من لم يره طرفي

لقد أفرطت في وصفك لي في الحب بالضعف

فقل هل تعرف الجنة يوماً بسوى الوصف

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١١٨.

هنا جاء شعر ابن حزم متميزاً بالبساطة والبعد عن التكلف والافتعال في وصف حب النساء المحجوبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال.

وما يلاحظ على أشعار ابن حزم أنها عبارة عن أبيات ومقطوعات قصيرة، فهي ليست قصائد مطولة، وهذه المقطوعات أتت بها ليستشهد بها ويعبر عن قدرته الشعرية، واتخذ من مقطعاته طريقاً يعبر به عن تجاربه وتجارب الآخرين، من هذه المقطوعات ما جاء في باب الغدر يقول^(١)

أقمت سفيراً قاصداً في مطالبني وثقتُ به جهلاً فضربَ بيننا
وحلَّ عُرَى وُدِّي وأثبت ودَّه وأبعد عني كل ما كان ممكنا

يُلاحظ أن هذه المقطوعة مكونة من بيتين فهي ليست قصيدة مطولة، فقد كان غرض ابن حزم الاستشهاد بالشعر وليس جمعه كما فعل غيره ممن اهتموا بظاهرة الحب فكانت كتبهم شبيهة بالمجامع الأدبية التي غرضها الجمع.

وقد أشار الدكتور احمد هيكل في كتابه الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة إلى أن أشعار ابن حزم في طوق الحمامة كانت تتراوح ما بين الجودة والتوسط^(٢).

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢١٣.

(٢) انظر، هيكل، أحمد، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، طبعة ٢، ١٩٩٧، ص ٣٩٥-٤٠٠.

والباحثة ترى أن السبب في ذلك هو أن ابن حزم ليس شاعراً متخصصاً، وإنما هو شاعرٌ أبيات يقول الشعر عندما يعرض له موقف فيصف، ويعبر بهذا الشعر عن حاله وتجربته وتجربة الآخرين وحالهم، ورفض ابن حزم أن يحمل الطوق بأشعار غيره، وفضّل أن يستشهد بأشعاره هو، فهي أقدر من سواها على التعبير عن تجربته، وكانت المقطوعات والأبيات التي أوردها ابن حزم قد وفقت في رسم المسار الأدبي الذي لا ينبغي للشاعر أن يحيد عنه، وذلك بتحديد الشاعر بخطوط يجب أن يحيط نفسه بها، وذلك بأن تكون أشعاره في إطار الحكم والخير، التي تعين النفس وتهذبها، ويلحق بذلك أشعار المديح والرثاء التي تنثي على صفات الممدوح الحسنة وتذكر بالموت في أشعار الرثاء، من ذلك ما قاله في باب الموت^(١):

لو جاعني عملي في حسن صورتها يوم الحساب ويوم النفخ في الصور
لكنني أحظى عباد الله كلهم بالجنّتين وقرب الخرد الحور

في هذه الأبيات جمع ابن حزم ما بين مدح المحبوب، فقد وصفه بأنه غاية في الحسن والجمال، وما بين التذكير بالآخرة والحساب والموت، فقد تمنى أن تكون صورة كتابه يوم القيامة بحسن صورة من يحب، وسيكون عند ذلك أحظى عباد الله كلهم بمحبة الخالق وينال الجنة.

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٧٤.

أما أغراض الشعر، كالغزل، والهجاء، والصعلكة فهي من المكروه الذي لا ينبغي نظم الشعر فيه عند ابن حزم، وعند أغلب الفقهاء، فتلك الأغراض في أساسها بنيت على كذب^(١).

وينطلق ابن حزم في ذلك من أساس خلقي يتلمس من خلاله الأثر النفسي لهذه الفنون في المتلقي ويدرك مدى التأثير في سلوكه، فشعر الغزل مثلاً يوجب الفتنة ويقود إلى اتباع الشهوات، ويصرف الناس عن ذكر الله عز وجل. وكذلك الحال في شعر الصعلكة الذي يدفع بالنفس إلى المهالك وسفك الدماء والسرقة والنهب، أما الهجاء ففيه انتهاك للحرمان وقذف للأعراض.

وهذا ما حدا بابن حزم إلى تجنب قول الشعر في هذه الأغراض، ومواقفه وآراؤه هذه تصدر عن فقه ظاهري، متشرب لأصول العقيدة، فهو قد اتخذ الفقه منهجاً وسلوكاً لا يتعدى بموجبها على المقياس الخلقي والديني الذي يمثله قول الله تعالى: "والشعراء يتبعهم الغاؤون، ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون"^(٢) صدق الله العظيم

(١) عبد الرحيم ، مصطفى عليان ، تيارات النقد الأدبي في الأندلس، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٨٤، ص ٣٣٢-٣٣٤.

(٢) القرآن الكريم، سورة الشعراء، الجزء ١٩، آية ٢٢٤.

ومما يؤخذ على أشعار ابن السراج في مصارع العشاق أنها تتراوح ما بين القوة والضعف وسُوء المعنى وضعته، فقد كان أحياناً يورد أشعاراً تتأى عن العذرية، ولا تتسق مع العقيدة، وكان يجاري بها أهل عصره، وكانت هذه المجازاة بقصد التظاهر وإتيان القدرة أمام الآخرين على تمكنه من الشعر وقدرته على النظم ومجازاة الشعراء في مذاهبهم من ذلك ما أورده من غزل بالمذكر فيه مجون وإفحاش.

إن الشعر في كتاب مصارع العشاق كان حلية لا مادة يمكن إن تفيد منها دراسة، وأن تتخذ وسيلة للاستدلال، فكان مجال مباهاة وأداة استعراض للقدرة على النظم ولم يعدم شعر مصارع العشاق سمات إيجابية، إذ ظهرت فيه لابن سراج معاني العفاف والنقاء، فعكس بذلك استجابة التصوير الإسلامي لصدق العاطفة والالتزام بالأخلاق والمبادئ السامية، إذ نجده يروي في كتابه مصارع العشاق، شعراً لجارية مجنونة سلم عليها فلم ترد عليه السلام، ثم ولّى فسمعها تقول^(١):

زهد الزاهدون والعابدونا	إذ لمولاهم أجاجوا البطونا
أسهروا الأعين القريحة فيه	فمضى ليلهم، وهم ساهرونا
صيرتهم محبة الله حتى	علم الناس أن فيهم جنونا

(١) السراج، أبي محمد بن جعفر بن أحمد، مصارع العشاق، المجلد الأول، دار بيروت، دار النفائس، بيروت، لبنان، ص ١٨٢.

إن التأمل في الكتب الثلاثة المتعلقة بموضوع الحب كفيل بأن يتبين فيها طابع العفاف الذي هو ضرورة ورمز للحب وبدونه يصبح رذيلة من الرذائل، لا يتميز بأية قيمة أخلاقية كريمة. فابن داود أفرد للعفاف باباً من أبواب كتابه تحت عنوان (من كان ظريفاً فليكن عفيفاً)، فهو يؤمن بضرورة العفاف ويحث عليه.

وابن حزم يرى أن العفاف أصله مخافة الله والحذر من سخطه، ومثلهما ابن السراج الذي أورد قصصاً حول العفاف، وأفرد له باب (الظافرين بأحبابهم مع العفاف بعد أن أشرفوا على الإتيان)، وباب (فساق العشاق) وهذه الظواهر تحمل معنى الإيمان بالعفاف والدعوة إليه والتمسك به.

وما يميز هذه الدراسات أيضاً أنها قد أجمعت على الحفاظ على أحكام الدين وقواعده، وقد تناولت أمر الحب من الوجهة الأدبية والنفسية، وحرصت في جميعها على تحديد موقف الدين منها.

فالثقافة الإسلامية كانت مصدراً أصيلاً من مصادر هذه الدراسات.

فضلاً عن أن البيئة كانت تمد هؤلاء الأدباء بشعر عفيف شبيه بالشعر العذري إضافة إلى قصص العشاق وتجاربهم التي كانت جميعاً عوامل ذات أثر واضح في الحب الأندلسي.

المرأة في طوق الحمامة وكتب العشق الأخرى:

لا شك في أن كتاب طوق الحمامة يمثل خلقاً أدبياً، فهو دليل حي وواضح على ثقافة ابن حزم الواسعة، إذ أنه يثير في كل خبر عدداً غير قليل من القضايا المهمة، ولا سيما قضية المرأة، ومكانتها في المجتمع الأندلسي، وموقفها ودورها في علاقات العشق: أهى عاشقة أم معشوقة، وهل في مقدرتها التعبير عن مشاعرها؟ وما هي الصورة التي ظهرت فيها المرأة في الطوق؟ وما هو مستوى ظهورها، وما مدى سعة ظهورها في مشاهد العشق، وهل احتلت مكانها، سيدة محترمة ذات منزلة في قصر الخلافة أم كانت جارية؟

أما على مستوى علاقات الحب، ودور المرأة في هذه العلاقات في مجتمع الأندلس، فقد ساهمت البيئة الأندلسية المنفتحة في انتشار الاختلاط بين المرأة والرجل، فأتاح الفسحة الكافية أمام المرأة للإعراب عن مشاعرها، ولم تقتصر هذه الظاهرة على فئة معينة من فئات المجتمع، ولم تستأثر بها فئة الأغنياء دون فئة الفقراء، بل تعدتها إلى الجوارى والإماء اللواتي أحببن واكتوين بنار الحب، وعبرن عما لقين من معاناة، كما كوين به رجالات الأندلس، خلفاء كانوا أم فقهاء أم من العامة.

والمرأة العربية الشرقية، كما يصورها شعر المشرقيين، كانت بخيلة في وصالها متمنعة صعبة المنال، ولم تتح لها فرصة التعبير عن مشاعرها

ومعاناتها، فالعادة عند العرب أن المرأة معشوقة لا عاشقة، مطلوبة لا طالبة، وبخلاف ذلك كان حال المرأة في الأندلس، فظهرت في الشعر والأخبار مختلفة على نحو ظاهر عن أختها المشرقية، فهي تعشق وتحضر مع الرجال مجالس الأدب واللهو وتحاور الرجال، وتتشد الشعر وتتغزل دونما حرج، وغزل الشوارع الأندلسيات معروف، على أن من هؤلاء الجواري من اتصفت بالعفة وابتعدن عن مواطن الشبهة، وقد أورد ابن حزم في باب (من أحب من نظرة واحدة)^(١) قصة عن الرمادي مع الجارية المتعفة التي طلب الرمادي مواعدها فاختلفت وكأن الأرض ابتلعته، ولم يستثن ابن حزم نفسه، فأورد تجربته الخاصة، وذلك أنه تعلق في صباه بجاريه نشأت في دارهم اسمها نعم، والأمثلة غير قليلة في الطوق وفي كتب العشق السابقة واللاحقة له، كلها تفصح عن أنه كان للمرأة مكانة مرموقة في قصور الخلفاء والأمراء الأندلسيين، وأنها كانت تحظى بمكانة خاصة في قلوب هؤلاء، وكان للجواري الحظ الأوفر في هذه المكانة.

والأكثر من ذلك أن بين هؤلاء من كن أمهات ولد، كدعجاء مع عبد الرحمن بن معاوية، وأن منهن عاشقات "كالجارية التي اشتد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء، وهو لا علم عنده، حتى ضاق صبرها فبادرت إليه وقبلته"^(٢).

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٢٠.

(٢) ابن حزم، طوق الحمامة، إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٨٢.

ولشيوع هذه الظاهرة لم يتورع ابن حزم عن التصريح أحياناً بأسماء المعشوقات، وقد يتكلم في أحيان أخرى فلا يصرح تفادياً للحرج.

فقصة المرأة التي اشتد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء تشير إلى أن المرأة في المجتمع الأندلسي، كان باستطاعتها أن تعبر عن حبها الذي لا يعترف بالطبقات والفوارق الاجتماعية.

ويعصور كتاب الزهرة الظهور البارز للمرأة التي تمثل الطرف الثاني في علاقات العشق، ومن ذلك ما أورده ابن داود الأصبهاني في باب (من منع من الوصول اقتصر على الرسول).

إذ ذكر أن جميلاً وكثيراً التقيا، فطلب جميلٌ من كثير أن يأخذ له موعداً من بثينة عن طريق الحيلة، من خلال أبيات ينشدها أمام عمها فقال كثير^(١):

أقولُ لها يا عزَّ أرسلَ صاحبي	على نأي دارٍ والموكلُ مرسلُ
بأن تجعلي بيني وبينك موعداً	وأن تأمريني ما الذي فيه أفعلُ
أما تذكرين العهدَ يومَ لقيتكم	بأسفل وادي الدَّوم والثوب يغسلُ

(١) الأصبهاني، أبي بكر محمد بن داود، الزهرة، الجزء الأول، الباب الرابع عشر، ص ١٧٣.

"فلما سمعت بثينة ذلك، قالت اخساً. قال لها عمها: ما الذي اخسأت يا بثينة؟ قالت: كلباً يعترينا ليلاً، وقد رأيته نهاراً، فانصرف كثيرٌ إلى جميلٍ، وعرفه أنها قد ذكرت الليل فصر إليها"^(١).

في هذه الحادثة يعبر ابن داود الأصبهاني عن نظرتِه للمرأة المعشوقة المطلوبة التي تمتاز بالحيلة والذكاء، فقد ساقَت موافقتها لرؤية جميل عن طريق إيرادها لفظة الليل التي توحى بالتخفي، والتستر عن أعين الناس.

أما ابن السراج في كتابه مصارع العشاق الذي ألفه (عام ٤٩٣ هـ) فقد ذكر النساء وأخذ عنهن الأخبار ومن ذلك ما ذكر في الجزء الخامس في (باب من حمله هواه على قتل من يهواه) عن الشیخة شهدة بنت أحمد: أخبرتنا الشیخة الجليلة فخر النساء شهدة بنت أحمد بن الفرج أن ابن السراج قال أخبرنا أبو ظاهر أحمد بن علي السواق قال: أخبرنا محمد بن أحمد بن فارس:.... عن الأعمش^(٢) قال: كان في بني إسرائيل رجل لص يقال له برزين المناقيب، قال: أعجبتني امرأة من نواحي الكوفة، فأخذت سيفي وخرجت في السحر فلقيت بغير

(١) المصدر نفسه، ص ١٧٣.

(٢) ابن السراج، مصارع العشاق، تحقيق د. بسمة أحمد صدقي الدجاني، ص ١٩٢.

سقاء فضربت عنقه ثم توجهت نحوها، فتسورت عليها فعالجتها، فلم أقدر عليها،
وامتنعت أن تدخل معي في الحرام"^(١).

هذه الحادثة التي أوردها ابن السراج، من هذه المرأة، تصف موقف ابن
السراج من المرأة، فهو ينظر إليها على أنها مثال للعفاف والطهر، ولا ترضى
بالحرام، فهو يكرم المرأة، ويرفع من شأنها، فهي عندما قدمت المساعدة دلّ على
أنها ذات خلق كريم، ولا تتردد في مساعدة المحتاج وهي في الوقت نفسه عفيفة
لا تقبل الحرام وقادرة على الحفاظ على نفسها.

وعرّج ابن السراج موضوع الوفاء، فوصف المرأة بأنها وفية، وجاء ذلك
تحت عنوان (وفاء زوجة) في خبر نقله ابن السراج عن أبي بكر العامري عن
مصعب بن عبد الله الزبيري، قال: "تزوج مالك بن عمر الغساني بابنة عمّ
النعمان بن بشير، فشغف كل واحد منهما بصاحبه، وكان مالك شجاعاً،
فاشترطت عليه أن لا يقاتل... شغفه عليه وضنى به فباشر القتال، فأصابته
جراح فقال وهو مثقل منها"^(٢):

ألا ليت شعري عن غزالٍ تركته إذا ما أتاه مصرعي كيف يصنعُ

فلو أنني كنتُ المؤخَّرَ بعده لما برحت نفسي عليه تطلُّعُ

(١) المصدر السابق، ص ١٩٢.

(٢) ابن السراج، مصارع العشاق، المجلد الأول، دار بيروت، دار النفائس للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٧،
ص ٩٤.

وأنه مكث يوماً وليلة ثم مات من جراحه، فلما وصل خبره إلى زوجته
بكته سنة، ثم اعتقل لسانها، فامتعت عن الكلام، وكثر خطابها، فقال عمومها
وولادة أمرها نزوجها لعل لسانها ينطلق، فما كان في الليلة التي أهديت إليه فيها،
قامت على باب القبة وقالت^(١):

يقول رجال: زوجها لعلها تقر وترضى بعده بخليل
فأخفيت في النفس التي ليس بعدها رجاء لهم، والصدق أفضل قيل
فلما فرغت من الشعر شهقت ثم ماتت.

لقد أظهر ابن السراج أن المرأة ليست عفيفة وذكية فحسب، وإنما هي
أيضاً وفيّة وشاعرة وأديبة، فقد أورد لهذه الزوجة شعراً ترثي فيه زوجها وتتعا
بمزید من الحزن والأسى، ولم ترض بعده بزواج آخر فكان آخر كلامها في هذه
الدنيا منصّباً على زوجها وصفاته الحسنة التي لم تقبل بأحد بعده وفاءً منها له
ولعشرتها معه، فقد رفع ابن السراج من مكانتها ونظر إليها نظرة احترام وصور
صدق عاطفتها ووفاءها وإخلاصها.

(١) ابن السراج، مصارع العشاق، المجلد الأول، دار بيروت، ودار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٧،
ص ٥٠.

وتظهر المرأة في طوق الحمامة شاعرة أيضاً، فقد أقحمها ابن حزم في ميدان الأدب والشعر، وجعلها طرفاً فيه، فذكر من النساء أم الكرم بنت المعتصم بن صمادح، كما ذكر المرأة المغنية التي كان لها في القلب منزلة كبيرة، لولوع أهل الأندلس بالغناء وتعلمه.

يصور ذلك الخبر الذي أورده ابن حزم عن فتى وجارية كانا يتحابان، فأرادها في بعض وصلها على بعض ما لا يحل، فقالت: "والله لأشكونك في الملاء علانية ولأفضحك فضيحة مستورة"^(١).

فمن خلال هذا الخبر يتضح أن ابن حزم يصور جانباً أخلاقياً تميزت به النساء في المجتمع الأندلسي، فقد وصف عفاف الجارية وتمسكها بالقيم والمبادئ والأخلاق، وعلى الرغم من حبها لذلك الفتى، غير أن طهرها وعفتها حالاً بينها وبين ارتكاب المعصية، فابن حزم يقدم صورة راقية للمرأة الأندلسية العفيفة الملتزمة فهو يحول لغة الحب من ثقافة الجسد إلى ثقافة الحب والنظر إلى المعنويات.

وهذا الأمر مناقض تماماً لما يراه الدكتور مصطفى عبد الواحد في كتابه (دراسة الحب في الأدب العربي)، فهو يرى "أن ابن حزم جرد المرأة من كثير من

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٣٥.

الخيالات التي تحيط بها من الأدب وأغرى بتتبع المرأة وإحكام الرقابة عليها وحذر منها ومن كيدها وأوحى بالاحتراز منها والاحتياط"^(١) وهذا مما لا يمكن للباحثة تتفق عليه مع الدكتور مصطفى عبد الواحد فيما ذهب إليه تجاه ابن حزم ونظرته للمرأة. فالمتأمل في الطوق يجد أن ابن حزم قد اعترف بفضل المرأة في الأندلس، وظهر أنها قامت بدور المربية والمعلمة وأتقنت هذا الدور خير إتقان على حد قول ابن حزم: "هن علمني القرآن ورويني كثيراً من الأشعار"^(٢).

فهذا اعتراف واضح من ابن حزم بفضل المرأة عليه، وأنها كانت سبباً فيما وصل إليه من ثقافة وعلم، فهي مصدر من مصادر ثقافة ابن حزم وتنشئته وتربيته، فلو أتاحت لها الفرص لتفوقت على الرجال في الكثير من الأنشطة والمجالات.

والدراسة المتأنية لطوق الحمامة تكشف عن أن ابن حزم يدعو لاحترام المرأة ويطالب بكسر قيودها ويظهر ذلك في باب التعفف، عندما أورد قصة المرأة التي اجتمعت يوماً بمن تحب، فطلب منها ما يغضب الله فرفضت ونهته عن ذلك خشيةً من عذاب الله، ففي الطوق تذكيراً وتأكيداً لثقافة الحب المعنوي الطاهر العفيف المتمسك بقيم وتعاليم الإسلام، بعيداً عن ثقافة الجسد، .

(١) عبد الواحد، مصطفى، دراسة الحب في الأدب العربي، ج٢، دار المعارف، مصر، ١٩٧٢، ص٤١٨.

(٢) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٦٦.

وكما ترى الدكتور آمال منصور في بحث قدمته، بعنوان تمثيلات المرأة في طوق الحمامة لابن حزم. مقارنة ثقافية في خطاب العشق أن ابن حزم يرسم سفرًا جديدًا لأبجديات العشق^(١) فهو ليس كتاب هاوٍ ييوح بمشاعره وبتجاربه، ولكنه تجربة أدبية جديدة، يؤسس فيها لأعراف جديدة هي أبعد بكثير من مجرد كتاب يرصد تجارب فردية أو جماعية.

والباحثة تتفق مع الدكتورة آمال منصور فيما ذهبت إليه من آراء تجاه ابن حزم ونظرته للمرأة، فقد عكس ابن حزم صورة المرأة الأندلسية وما هي عليه من الأخلاق والقيم النبيلة والثقافة والمعرفة التي تمكنها من أن تنافس الرجل.

ومن تجليات اهتمام ابن حزم بالمرأة، أنه صور جانباً من الحياة العاطفية للمرأة القرطبية، وما هي عليه من الغربة، إذ نجد المرأة المسنة ذات العكاكيز تعمل سفيرة حب، فتسعى إلى التوفيق بين المتحابين وعقد الصلة بينهما.

(١) انظر منصور، آمال تمثيلات المرأة في طوق الحمامة لابن حزم، مقارنة ثقافية في خطاب العشق، المؤتمر للنقد السابع عشر، الأدب الأندلسي بناءً وموضوعاً ولغة وصورة، جامعة ممد خيرز، بسكرة، الجزائر، ٢٠١٤، ص ١١-٤.

(٢) المصدر نفسه ص ١١-٤

ومن ملاحظات ابن حزم الاجتماعية بصدد العلاقة العاطفية ما صوره في الطوق، فقد أشار فيه إلى أن الكتمان في أمر الحب أكثر عند النساء العجائز لمحافظتهن وللتواصي بالكتمان من الفتيات لأنهن قد يكشفن السر لغيرتهن.

إن المتتبع لصورة المرأة في الطوق يلاحظ شيوع كلمة جارية، والجواري كن على نوعين، جوارٍ تجري عليهن أحوال البيع والشراء^(١) ومن هذا النوع ما ورد من خبر في باب الوصل، قال فيه ابن حزم: "حدثني ثقة من إخواني جليل من أهل البيوتات، أنه كان علق في صباه جارية كانت في بعض دور آله، وكان ممنوعاً منها فهام عقله بها"^(٢).

هذا الخبر يتحدث عن نوع من الجواري هن اللواتي تجري عليهن أحوال البيع والشراء.

أما النوع الثاني: فجوارٍ يشير جو الأحداث إلى أنهن حرات وإن اللفظ صفة لهن وأن المقصود بالجارية المرأة التي أشار إلى مركزها الاجتماعي بقوله: "وإنني لأعرف جاريةً من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القواد وقد

(١) انظر بربوش، عفيف، المرأة في طوق الحمامة، رشفات ابن حزم الأندلسية، مجلة عمان، الأردن، ص ١٠٥-١١١.

(٢) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٨٨.

بلغ بها حبُّ فتى من أبناء إخواني من أبناء الكتاب مبلغ هيجان المِرار
الأسود^(١).

والجارية في لسان العرب هي الفتية من النساء بيّنة الجارية، والجراء
والجرين أي الصبا^(٢).

ولعل القسم الأول من الجواري هن الأغلب ظهوراً في تضاعف الكتاب،
ولا يستغرب ذلك في الأندلس حيث شاع اقتناؤهن، وحرص الأندلسيون على
تنقيفهن وتأديبهن ليقمن بتربية الأبناء وتعليمهم، ومثال ذلك نشأة ابن حزم وتربية
الجواري له وتعليمه للقرآن.

وهذه الملاحظ تؤكد أن ابن حزم في كتابه طوق الحمامة، يعلي من شأن
المرأة حتى الجارية منهن، إذ يفخر ابن حزم ويعترف بأن الذي قام على تربيته
وتعليمه القرآن والشعر هن الجواري، فاعترف لهن بجميلهن عليه، وأظهر احترامه
لهن في الطوق على نحو ما تقدم ذكره.

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٤٢.

(٢) ابن منظور، جمال الدين محمد مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د. ت) ص ٣٨.

لقد أثبت ابن حزم أن النظرة الإسلامية للعشق هي هي في كل العصور التي تعرضت كتب العشق لدراسة الحب فيها سواءً كتاب الزهرة لابن داود أو كتاب الطوق لان حزم أو كتاب مصارع العشاق لابن السراج، فهذه الدراسات الثلاث تلتقي في نقطة واحدة تتمثل في أنها جميعها قدّرت المرأة واحترمتها ورفعت من شأنها ودعت إلى تحريرها من الأطواق المقيدة لها.

العناصر الفنية في طوق الحمامة:

يضم الطوق، إلى جانب مادته الأساسية، معارف وعلومًا وثقافات، يأتي في مقدمتها:

الشعر:

لم يكن كتاب طوق الحمامة كتاباً في الشعر أو حوله، وإنما كان لرصد حالة من حالات النفس الإنسانية، وهي الحب: صفاته ومعانيه وأعراضه وأسبابه اعتماداً على الشواهد والملاحظة وجمع الأخبار، وصولاً إلى النتائج.

أما الشعر فقد اتخذ منه ابن حزم جسراً يعبر عليه يثبت به جملة من الحقائق والظواهر النفسية التي تظهر على المحبين فجاء الشعر وسيلة لتحقيق

الغرض من الكتاب، ومعبراً عن أحوال النفس بأسلوب جمالي بلاغي على نحو ما نجده في قول ابن حزم في باب الرقيب:

مواصلٌ لا يغيب قصراً أعظم بهذا الوصال غماً
صار وصرنا لفرط مالا يزول كالاسم والمسمى^(١)

بهذين البيتين من الشعر قدم الحبيبان شكوى، وعبرا عما يجول في النفس من اللوعة التي يتركها وجود الرقيب الذي يتابع الخطى ويتطلع في الوجوه، ويحصى الأنفاس.

فهذا الرقيب أدمن الجلوس، يرقب حال الحبيين حتى صار وجوده علامة على وجودهما.

ومن الأشعار التي أوردها ابن حزم وصور بها معاناته ما أورده في باب البين:

أرى دارها في كل حينٍ وساعةٍ ولكنَّ من في الدار عني مُغَيَّبُ
فيالك جَارَ الجنبِ أسمعُ حسَّهُ وأعلمُ أن الصَّيْنَ أدنى وأقربُ^(٢)

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٦٨.

(٢) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢١٦.

هنا بيتّ ابن حزم ما يكابده العاشق من آلام البين والبعد والنوى بأنواعه،
فهذا بين منع من اللقاء، وحظر على المحبوب أن يرى محبه، فعلى الرغم من
قرب دار الحبيب، جعل وجود العين (الرقيب) كلاً منهما بعيداً عن الآخر، وهذا
ما يولد الحزن والأسى لكلا الحبيبين.

ومثل هذا ما جاء في باب (الواشي) من شعر يصف حال الواشي وصفاً
دقيقاً يظهر أن الوشاية تمثل سر حياة الواشي، فهي بالنسبة له كالهواء الذي
يتنفسه:

عجبت لواشٍ ظل يكشف أمرنا وما بسوى أخبارنا يتنفس^(١)

فقد قدم الشعر في طوق الحمامة وظيفة إيحائية تصويرية تجلّى فيها
الجانب الاستعاري المعبر عن وجدان ابن حزم وهمومه وهموم الآخرين من خلال
الكلمات الموجزة الموحية.

التناس:

يعني التناس الذي يعد أهم ملمح من ملامح الكتابة الأدبية الإبداعية:
"تلاقح النصوص عبر المحاور والاستلهام والاستتساخ بطريقة واعية أو غير
مقصودة"^(٢).

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٧٢.

(٢) ادريس، نجمة عبد الله، بحث بعنوان: طوق الحمامة لابن حزم، خطاب في الأدب أم خطاب في
الثقافة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية الكونية، سنة ٢٠٠٧، العدد ٢٥/١٠٠، ص ١٧.

من الملاحظ أن التناسل كان شديد الحضور في طوق الحمامة، ليشمل جملة من الأجناس الأدبية الأخرى: كالاستعانة والاستشهاد بالأمثال والأقوال المأثورة وبالقرآن الكريم وبالسنة النبوية.

فمن خلال النظر في الطوق يلاحظ أن ابن حزم سار على غرار سابقه في حديثه عن دواعي تأليفه لطوق الحمامة، وأن كتابه جاء استجابة لدعوة صديق، وهذا الأمر أيضاً ينطبق على كتاب الزهرة لابن داود الأصبهاني الذي اشترك معه في داعي التأليف، وهو استجابة لرجاء صديق فقد يكون ابن حزم متأثر أيضاً بابن داود فكانت دعوة الصديق. السبب في تأليفه لطوق الحمامة وسار على غرار ابن داود الأصبهاني، يقول ابن حزم في مقدمة كتابه طوق الحمامة: "فإن كتابك وردني من مدينة المرية إلى مسكني بحضرة شاطبة، تذكر من حسن حالك ما يسرني... فبدرت إلى مرغوبك ولولا الإيجاب لك لما تكلفته"^(١).

نلاحظ هنا أن ابن حزم قد استلهم الفكرة من سابقه، وسار على طريقتهم باصطناع أسلوبٍ واعٍ يخلصه من المساءلة.

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٨٦.

ومما يلحظ في الطوق تمرّس ابن حزم في فنون البلاغة إذ يظهر تبحر ابن حزم في فنون البلاغة من خلال ولعه بالتشبيه في الشعر، وإكثاره من استخدامه في الطوق في أغلب الأبواب لما للتشبيه من دور في رسم الصورة المطلوبة من مخيلة السامع والقارئ عن حال المتحابين، ويظهر ذلك في باب (طي السر):

كأن القلب إذ يبدو قطاة ضمها شرك^(١)

فابن حزم يشبه قلب العاشق بالقطاة في شرك وهو بذلك سار على نهج الشعراء العذريين القدامى الذين تتردد مثل هذه الصور في أشعارهم من ذلك ما نجده لدى قيس ابن الملوح، مجنون ليلي الذي يقول:

كأن القلب ليلة قيل يُغدى بليلي العامرية أو يراح

قطاة عزها شرك فأضحت تقلبه وقد علق الجناح

وهكذا يظهر اعتماد ابن حزم التشبيه في تقريب ما يقول إلى ذهن المتلقي. كما يظهر تأثره بالموروث الأدبي العربي القديم، وإمامه بأشعار الأقدمين لذا سار على نهجهم في تشبيهاته.

ومن جملة ما أتى به ابن حزم من تشبيهات في باب الوصل:

كأنها حين تخطو في تأودها قضيب نرجسة في الروض مياس

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٤٦.

كأنما خطوها في قلب عاشقها ففيه من وقعها خطرٌ ووسواسٌ

كأنما مشيها مشي الحمامة لا كدُّ يعاب ولا بطءٌ به باسٌ^(١)

في هذه الأبيات تتعدد التشبيهات والمشبّه واحد وهي الجارية التي اشتدّ وجدها بفتى من أبناء الرؤساء، وهو بغرارة الصبا لا يشعر، ففي الأبيات وصف للجارية وهي تنهّدي في مشيتها وتتمايل كقضيبي نرجس لرشاقتها ونعومتها وجمال قوامها، كما شبّهت خطواتها وكأنها تخطو على قلب عاشقها لا على الأرض لشدة وقع خطواتها في قلبه فتسارع نبض قلبه وازداد خفقانه لانفعاله ودهشته مما يرى، كما شبّهت بالحمامة لتهاديها في مشيتها فلا هي مسرعة ولا بطيئة كما أن الحمامة رمز للمحبة والسلام.

وجاء التشبيه في (باب الوصل) بقلب الاستعارة في قوله:

يضحكُ الروضُ والسحائبُ تبكي كحبيبٍ رآه صبٌّ معنًى^(٢)

في البيت تشبيه للروض والسحائب بالإنسان الضاحك الباكي، في قالب الاستعارة فالبكاء والضحك من صفات الإنسان لا للجمادات، لكن الشاعر أنسَنَ الأشياء، ليبيدي تعاطفها مع الشاعر المعنًى.

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٨٣.

(٢) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٨٩.

فالطوق يعج بالتشبيهات التي تعبر عن حال من شبهوا بها وتعبر عن حالتهم النفسية وما أصابهم من لوعة العشق ومكابداته.

ونلاحظ إفادة ابن حزم من ميراث الشعراء الأقدمين، ومداومته على الدرس الأدبي واحتذائه طرائف الأقدمين، وأساليبهم الفنية ومنها تشطيره لمعلقة طرفة بن العبد في باب الهجر فيقول^(١):

تذكرت ودّ للحبيب كأنه	لخولة أطلال بريقة ثمهد
وعهدي بعهد كان لي منه ثابت	يلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقفت به لا موقناً برجوعه	ولا آيساً أبكي وأبكي إلى الغد

الاعتباس

الاعتباس الذي يشير إلى التأثر في الحديث النبوي الشريف ومن ذلك قوله من باب الواشي:

عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإياكم والكذب، فإنه يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار"^(٢).

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٩٤.

(٢) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ١٧٤، ورد في صحيح مسلم، باب البر، ج ٢، ص ٢٨٩.

وهذا يظهر تأثر ابن حزم بالسنة النبوية وميله إلى الاقتباس من أحاديث النبي عليه السلام، وتوظيفها في أقواله مدعمة لآرائه ومعتقداته، مكرراً أحاديث مختلفة تدور في فلك النهي عن الكذب والحث على الصدق.

كما يلاحظ في الطوق الاقتباس من القرآن الكريم، وذلك في باب الواشي مؤكداً على حرمة الكذب بأنواعه والهمز واللمز والفسق فيقول: والله عز وجل يقول: "ويل لكل همزة لمزة"^(١).

ويقول جلّ من قال: "يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا"^(٢).

فقد وسم الله عز وجل النقل بالفسوق.

هنا يستدل ابن حزم على آرائه فيستشهد بالقرآن الكريم فضلاً عن السنة النبوية، ليثبت كلامه، ويردع الوشاة والكذابين الذين يسعون إلى الإفساد بين الناس بكذبهم وهمزهم ولمزهم.

(١) القرآن الكريم، سورة الهمزة، الجزء الثلاثون، رقم (١).

(٢) القرآن الكريم، سورة الحجرات، الجزء السادس والعشرون، آية رقم (٦).

والمتأمل في الطوق يلحظ استخدام ابن حزم للأمثال في أشعاره متأثراً
ببيئته الأندلسية، والاستشهاد بالأمثلة العامية، لأنها أقوال موجزة لكن دلالتها
ومعناها كبيران ومن ذلك قوله في باب الواشي. "أما المحب فهيهات حال
الجريض دون القريض"^(١).

والجريض الغصة من الجرض أي الريق يغص به يقال: جرض بريقه
تجريض، والجرض هو أن يبتلع ريقه على هم وحزن، والقريض هو الشعر، وحال
أي منع، يضرب للأمر يقدر عليه أخيراً حين لا ينفع أي يضرب للمعضلة.

وأصل المثل هو أن رجلاً كان له ابن نبغ في الشعر فنهاه أبوه عن ذلك،
فجاش به صدره ومرض حتى أشرف على الهلاك، فأذن له أبوه بقول الشعر فقال
هذا القول: "حال الجريض دون القريض".

ويظهر تأثر ابن حزم بالأمثال العربية والموروث الأدبي القديم فيما أورده
في باب الهجر قال: "كان لا يلبث على زي واحد كأبي براقش حيناً يكون في
ملابس الملوك وحيناً في ملابس الفتاك"^(٢).

(١) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد
الحמיד، الجزء الأول، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، رقم المثل، ١٠١٧، ص ١٩١.

(٢) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٠٠.

أبو براقش هو طائر ملون بألوان عدة يتلون في اليوم عدّة ألوان ويضرب
المثل للمتلون الذي يظهر نفسه بعدّة أوجه وألوان بالحرباء وفقاً لما يعترضه من
مواقف.

والمتمأل في الطوق يلحظ أن ابن حزم لم يستخدم الأمثال في لغته النثرية
فحسب وإنما استخدمها في الشعر أيضاً من ذلك قوله:

كالكلب في الآرى لا يعتلف ولا يخلي الغير أن يعتلف^(١)

لقد استشهد ابن حزم بالأمثال العامية متأثراً بالبيئة الأندلسية فالأمثال
أقوال موجزة إلا أن دلالتها ومعناها كبير.

فقد شبه ابن حزم حال الرقيب بحال الكلب الذي لا يأكل ولا يجعل غيره
يأكل، وكذلك الرقيب لا يتهنئ بشيء ولا يجعل غيره يتهنئ بما لديه.

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٦٩.